شوقي والتسامح الدينيّ

عيسى فتّوح*

عُنِيَ الشاعر أحمد شوقي (١٨٦٩-١٩٣٢) بالمسيحيّة في شعره، لأنّ قرّاءه بالعربيّة لم يكونوا جميعًا مسلمين[١]، بل كان منهم المسلم والمسيحيّ. لذلك وقف من المسيحيّة موقف المعتزّ بها، المؤمن بتعاليمها، وأشاد بالسيّد المسيح حتّى في قصائده الكثيرة التي مدح بها الأتراك[٢]. فحين هُزم هؤلاء أمام البلغار في الحرب البلقانيّة، ودخل المنتصرون مدينة «أدِرْنَة» التركيّة العام ١٩١٢ وارتكبوا فيها الفظائع باسم الدين، راح يخاطب السيّد المسيح في قصيدته «الأندلس الجديدة» قائلًا:

عيسى سبيلُكَ رحمةٌ ومحبّةٌ في العالمينَ وعِصمةٌ وسلامُ
ما كنتَ سفّاكَ الدماءِ ولا امرأً هان الضعافُ عليه والأيتامُ
يا حاملَ الآلام عن هذا الورى كَثُرتْ عليه باسمكَ الآلامُ
أنتَ الذي جعلَ العبادَ جميعَهُمْ رَحِمًا، وباسمكَ تُقْطَعُ الأرحامُ
البغيُ في دينِ الجميعِ دنيّةٌ والسِّلْم عهدٌ والقتال ذِمام

لقد نظم شوقي هذه القصيدة لا ليسمعها الخليفة أو الأتراك، بل ليسمعها كلّ الناطقين بالضاد، ينعي إليهم هزيمة تركيا وفقدها مقدونيا، ويقصّ عليهم قصّة الجرح الدامي الجديد، بعد جرح الأندلس القديم.

(*) أديب وباحث سوريّ.

(١) شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، مصر، دار المعارف، طبعة ٢، ١٩٥٧، ص ١٣٣.

(٢) لأنّ جدّه لأمّه أحمد حليم التجدليّ كان تركيًّا قَدِم إلى مصر على عهد إبراهيم باشا واستقرّ فيها.

وبين هؤلاء الناطقين بالضاد مَن هو مسيحيّ لا يريد أن يؤذي شعوره[٣].

وتجري في هذا الاتّجاه قصيدته «مرحبًا بالهلال» التي قالها لمناسبة رأس السنة الهجريّة، وصادف أن تزامن هذا العيد وعيد الميلاد عند المسيحيّين، فلم يقف قصيدته على المسلمين، بل جعلها شركة بين الطرفين حتّى ينال رضاهما معًا فقال:

العامُ أقبلَ ثُمْ نحيّي هلالا كالتاجِ في هامِ الوجودِ تلالا
عيدُ المسيحِ وعيدُ أحمدَ أقبلا يتباريانِ رضاءةً وجمالا
ميلادُ إحسانٍ وهجرةُ سُؤدُدٍ قد غيّرا وجهَ البسيطةِ حالا

ومن قصائده في هذا الاتّجاه الذي يريد فيه أن يرضي جمهوره من المسلمين والمسيحيّين جميعًا، قصيدته في «مسجد أيا صوفيا» الذي كان كنيسة، فحوّله الأتراك حين فتحوا القسطنطينيّة إلى مسجد تُقام فيه شعائر الإسلام. فالموقف دقيق - كما يقول الدكتور شوقي ضيف[٤] - لكنّه عرف كيف يخلص منه على أجنحة من الشعور المرهف فقال:

كنيسةٌ صارتْ إلى مسجدٍ هديّةُ السيّدِ للسيّدِ
كانتْ لعيسى حَرَمًا فانتهتْ بنُصرةِ الروحِ إلى أحمدِ

لقد نظر شوقي إلى الأديان الترحيديّة نظرة ملؤها التسامح والوعي، ما دامت هذه الأديان كلّها تؤمن بالله الواحد الأحد فـ«الدين للديّان جلّ جلاله»، ولا تشرك به أحدًا. وقد سلك في شعره الدينيّ نهجين متوازيين، يقوم الأوّل على معارضة المتقدّمين كالبوصيري الذي عارضه في قصيدة «نهج البُردة»، وقلّده في الوزن والرويّ والغَرَض، لكن بعقليّة مثقّفة[٥] عصريّة، فقال:

- ريمٌ على التاجِ بين البانِ والعلمِ أحلَّ سفكَ دَمي في الأشهرِ الحُرُمِ

كما عارضه في «البزيمة» وإن اختار بها بحرًا آخر هو البحر الكامل وبدأها

---

(٣) شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، مصر، دار المعارف، طبعة٢، ١٩٥٧، ص١٣٤.
(٤) المصدر نفسه، ص ١٣٥.
(٥) عمر فرّوخ، كلمة في أحمد شوقي، بيروت، مكتبة صيدا، ١٩٥٠، ص ٢٢.

بقوله:

وُلِد الهدى فالكائناتُ ضياءُ وفمُ الزمانِ تبسُّمٌ وثناءُ
يا خيرَ من جاءَ الوجودَ تحيّةً من مرسلينَ إلى الهدى بكَ جاؤوا
أثنى المسيحُ عليكَ خلفَ سمائِهِ وتهلّلتْ واعتزّتِ العذراءُ

ويقوم النهج الثاني على التطرّق إلى الأديان التوحيديّة الأخرى ولا سيّما المسيحيّة التي وقف عندها موقفًا طويلًا ومشرِّفًا في أكثر من قصيدة. وحاول في هذه المواقف غرس روح التسامح الدينيّ والمحبّة بين المسيحيّين والمسلمين، كقوله في مدينة القسطنطينيّة التي خرجت من يد الروم إلى يد الأتراك:

أدارَ محمّدٍ وتُراثَ عيسى لقد رضياكِ بينهما مشاعا
فيا لَيْتَ التعصّب فيكِ قومٌ يمدّ الجهلُ بينهما نِزاعا؟

وهو يحترم جميع الأديان التوحيديّة ويجلّها من دون تفريق:

أرسلتَ بالتوراةِ موسى مرشدًا وابنَ البتولِ فعلّم الإنجيلا
وفجّرتَ ينبوعَ البيانِ محمّدًا فسقى الحديثَ وناولَ التنزيلا

وهو يدعو المسلمين إلى إعلاء تعاليم السيّد المسيح، والمسيحيّين إلى توقير الإسلام، لأنّ الدين لله الذي لو شاء لوحّد البشر كلّهم وسلكهم في دين واحد. فقبور الملّتَيْن متجاورة، وهل يستطيع أحد أن يفرّق بين عظام مَن كانوا على هذا الدين وذاك؟ ولذلك يدعوهم بحقّ هؤلاء الموتى، واحترامًا لهم إلى أن يعيشوا في تفاهم ومحبّة وسلام ووئام قائلًا:

نعلي تعاليمَ المسيحِ لأجلِنا ويوقّرونَ لأجلِنا الإسلاما
الدينُ للديّانِ جلّ جلالُهُ لو شاءَ ربُّكَ وحّدَ الأقواما
هذي قبورُهُمُ وتلكَ قبورُنا متجاورين جماجمًا وعظاما
فبحرمةِ الموتى وواجبِ حقّهم عيشوا كما يقضي الجوارُ كراما

كذلك يدعو إلى تعانق الهلال والصليب في سبيل طرد المستعمِر، ونيل البلاد استقلالها. فهما راية الله التي يعيش الناس في ظلّها آمنين مطمئنّين، في حين أنّ الحرب هي راية الشيطان:

جبريلُ أنتَ هدى السما ءِ وأنت برهانُ العنايَهْ
أبسطْ جناحيكَ للذبـ ـنِ هما الطهارةُ والهدايهْ
وزدِ الهلالَ من الكرا مةِ والصليبَ من الرعايَهْ
فهما لربُّكَ رايةٌ والحربُ للشيطانِ آيَهْ

لقد كان شوقي يعطف على المسيحيّة والمسيحيّين، كما يعطف على الإسلام والمسلمين، ولا يذكر النبيّ محمّدًا إلاّ ذكر إلى جانبه السيّد المسيح، فهما رمز الوحدة الوطنيّة والتآخي والتفاهم بين شعوب الأقطار العربيّة.

ألم تكُ من قبلِ المسيحِ بن مريم ومومى وطه نعبدُ النيلَ جاريا
فهلّا تـانينا على حبّهِ الهُدى وهلّا فديناهُ ضفافًا ورواديا؟

وكان معجبًا بالسيّد المسيح ورسالته الإنسانيّة السامية القائمة على المحبّة والتسامح والإخاء والمساواة والرفق والتواضع... فهل هناك أجمل من قوله؟

وُلِد الرفقُ يومَ مولِدِ عيسى والمروءاتُ والهُدى والحياءُ
وَسَرَت آيةُ المسيحِ كما يسـ ـري من الفجرِ في الوجودِ الضياءُ
تملأ الأرضَ والعوالمَ نورًا فالثرى ماثجٌ بها وضّاءُ
لا وعيدٌ، لا صولةٌ، لا انتقامٌ لا حُسامٌ، لا غزوةٌ، لا دماءُ
مَلِكٌ جاورَ الترابَ فلمّا ملَّ نابتْ عن الترابِ السماءُ

وكثيرًا ما كان يرتاح لترديد أسماء الأنبياء في شعره، كقوله في مخاطبة الجوهر الإلٰهيّ:

فمحمّدٌ لك والمسيحُ ترجّلا وترجّلتْ شمسُ النهارِ ليوشعِ
ما بالُ أحمدَ عيّ عنك بيانُهُ بل ما لعيسى لم يقلْ أو يدعِ
ولسانُ موسى انحلَّ إلاّ عقدةً منْ جانبيكَ علاجُها لم ينجعِ

ويقول أيضًا:

أين الفراعنةُ الألى استذرى بهم عيسى ويوسفُ والكليمُ المتعتق

ويقول:

وكلُّ معنىً لعيسى في محاسنِهِ جاءتْ به من بناتِ الشعرِ عذراءُ

ويقول:

عيسى الشعورُ إذا مشى ردَّ الشعوبَ إلى الحياة

لقد كان شوقي رسول هداية الأمّة العربيّة التي تعدّدت فيها الأديان والمذاهب. ما أحوجنا اليوم إلى قراءة شعره مجدّدًا، والعودة إلى ديوانه الشوقيّات للاطّلاع على مطوّلاته القيّمة التي ضمَّنها آراءه وأفكاره الإنسانيّة الراقية الداعية إلى التفاهم الدينيّ، وإشاعة روح المحبّة بين الناس جميعًا، لأنّ الإنسان أخو الإنسان سواءٌ أحبَّ أم كَرِه!

صدر عن دار المشرق